الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال
على ما فيه من زيغ وكفر وضلال
بالعقل والنقل

بقلم

محمد عبد الرزاق حمزه

المدرس بالحرم المكى الشريف

قدم له وعلق عليه

محمد احمد الغمراوى

مؤلف « النقد التحليلى » و « فى سنن الله الكونية »

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) سورة الاعراف

مطبعة الإمام

١٠ – الدمالشة عابدين مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب فى الرد على كتاب « هذى هى الأغلال » كتبه أخى فى الله الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالحرم المكى الشريف ، تأييدا وتتميما للرسالة المقنعة الممتعة التى كتبها علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدى فى نقد نفس الكتاب ، والتى سماها (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمى فى أغلاله)

وكتاب الأغلال ألفه شاب نجدى مغمور وطبعه ونشره فى مصر فلم يكن له من الأثر إلا ما يكون للحصاة يلقى بها فى اليمّ : مقالات قليلة كتبت هنا وهنالك أكثرها كان فى تحقير الكتاب وتسفيه صاحبه ، وأقلها كان فى جانبه من بعض من يذهب مذهبه فى الدين ونشوئه . وقد أقنعتنى جميعها بتفاهة الكتاب وسخفه ، فصدتنى عن قراءته فضلا عن الاهتمام بنقده رغم رجاء أحد تلامذتى وزملائى إياى أن أنقده لأنه كما قال كتاب سوء يحارب الاسلام بكل وسيلة ومن كل سبيل.

لكن الموقف تغير حين طلب إلىّ أخي وصديقي الشيخ محمد

عبد الرزاق حمزة أن أعلق على كتابه وأن أقدم له إن أمكن ، وحين ارسل إلىّ مع كتابه رسالة الشيخ السعدى هدية من نبيل جدة ووجيهها الشيخ محمد نصيف .

قرأت رسالة الشيخ السعدى ثم قرأت كتاب الشيخ حمزة فاذا بى أمام أمور فظيعة منسوبة إلى صاحب الأغلال ، ونصوص شنيعة منقولة عن كتابه لم يذهب بى الخيال يوما إلى أن مثلها يمكن أن يصدر عن مسلم كان له يوما فى الاسلام قدم ، بل كان له فى سبيل الاسلام عند أهل بلده جهاد .ولم أجد بدا حين قرأت الكتابين من أن أقرأ كتاب الأغلال من أوله إلى آخره لأعرف حقيقته عن غير واسطة إن كنت كاتبا مقدمة لرد عليه . قرأته فاذا الأمر أفظع حتى مما يبدو من خلال الكتابين .

وجدت كتابا ينبض بالضغن ويفيض بالقدح فى الاسلام وأهله فقد نقض صاحبه ما وصلت إليه يده من كتب المتقدمين حتى إذا وقف على بعض أقوال لا يقول بها أحد يعتد به اليوم — ولا يخلو من مثلها تاريخ أمة حتى فى هذا العهد الحديث — اتخذ تلك الأقوال ذريعة إلى الطعن فى المسلمين أجمعين فى عشرة القرون الأخيرة من تاريخ الاسلام ، مؤكدا للقارىء وللناس أن المسلمين جميعا عاشوا طوال تلك الحقبة لا يرون الاخذ بالأسباب معتقدين أن التوكل على الله معناه النوم وترك التدبير اتكالا على أن الله سيرزقهم من غير سعى ولا عمل ويحميهم من غير إعداد عدة ولا جهاد ، واكتفاء فى ذلك كله بالدعاء والانقطاع لعبادة الله من نحو صوم أو صلاة ،فتأخروا فى زعمه عن ركب الانسانية ألف عام ناموها

وسارها غيرهم من مختلف الشعوب والاديان .

ولو اقتصر الأمر على مثل هذا الزعم لهان على شناعته ؛ فكل عارف بتاريخ الاسلام يعلم أن المسلمين لم يكونوا كلهم أو جلهم يعتقدون ذلك يوما من الأيام ، ولعل فترات عزهم فى الألف عام الاخيرة كانت أكثر من فترات ذلهم ، بعكس الغربيين الذين يسبح صاحب الاغلال بحمدهم وحمد مدنيتهم ويقدس لها ولهم . وعلى فرض أن المسلمين كانوا كما وصف طوال تلك القرون العشرة فليسوا هم كذلك الآن فكلهم يريد الأخذ بالأسباب ، وكلهم يدعو إلى الأخذ بأسباب النهوض والعزة ، وإن اختلفوا فى الاسباب ذاتها اختلاف أية أمة ناهضة أو شعب فى كل عصر وعلى الأخص فى هذا العصر . ففيم إذن الهمز واللمز والطعن والذم والاستهزاء والسخرية وقد انقضى سببها المزعوم إن كان قد وجد يوما من الأيام ؟ أليس من الحمق والغباوة ، أو من الغرور وتلمس شهوة المال والشهرة من أسوأ طريق ، أن يفترض صاحب الأغلال وجود مالم يوجد أو استمرار ما قد انقطع وانقضى ليجاهده وينازله كما كان دُن كويشوت فى كتاب سرفنتيس يجاهد وينازل طواحين الهواء يظنها مردة وعماليق تقطع على الناس الطريق ؟ ثم أليس من الغرور والحمق معا أن يعتقد صاحب الأغلال أن الاربعمائة المليون المسلم - على حد تعبيره - خاضعة اليوم لسلطان تلك الخرافات التى يزعم ، ثم يطمع أن يزحزحها هو عن ذلك بسفاهته وبذاءته التى بثها فى كتابه ، والتى ستصد عنه كل من يقترب منه كما تصد الرائحة الخبيثة عن مكان الجيفة ؟ فلو أن إنسانا أحسن الدعوة من وجهها

وجاء إلى المسلمين يدعوهم ليقودهم بزمام دينهم — والاسلام كله مقاد إلى الخير والعز والفلاح — لكان عجبا مع ذلك أن يطمع بمفرده فى تحريك العالم الاسلامى وقد قعد عن العمل بالاسلام ، طالت مدة القعود أو قصرت ، فكيف بهذا المغرور الضال الذى لا يرى سبيلا إلى نهوض المسلمين إلا أن يكفروا بماضيهم كله ، وينزلوا عن ميراثهم كله ، ويحتقروا كل ما أُلف فى ألف سنة فى أى علم أو فن لأنه صورة من كتاب واحد ألف فى علمه أو فنه قبل أن تبدأ الألف أو بعد أن بدأت الألف ، وأن يُنزلوا أى رواية أو رأى يجمع عليه أو عليها مؤلفو تلك الكتب الكثيرة منزلة رواية الفرد الواحد ورأى الشخص الواحد ، هكذا يدعى وإلى ذلك يدعو هذا المغرور المفتون فى إعادة وتكرار ومبالغة وتوكيد . واقرأ له إن شئت لترى إلى أى مدى يذهب الغرور بصاحبه ، ولتحكم أعن عقل يصدر فى كلامه أم عن تخليط . قال من ص٣٠٦ من كتابه : (والخطوط من عندنا)

« إننا نعدّ فى علم التاريخ مئات الكتب وألوفها ، وكذا فى الحديث والفقه والتفسير وفى كل علم ، ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتابا واحدا فانسان ألف منذ ألف سنة مثلا مؤلفا فى علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها . فاذا جاء بعده ألف مؤلف فى هذا العلم فانهم جميعا سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير

وهذا هو الشأن فى جميع المؤلفات التى تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتى يفوت إحصاؤها .

« وعلى هذا فمن الخطأ الذى يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأيا فى مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأى قد قال به ورواه هذا العدد العديد . والصحيح أن نقول إنها أو إنه «رواية أو رأى» إنسان واحد فى مؤلف واحد نقله هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل ؛ فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول : كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم ! وكيف تكون كذبا ثم يخفى حالها على كل هؤلاء ؟ إن من السهل على الانسان ألا يثق برواية إنسان واحد ورأيه ، ولكن من العسير عليه أن يشك فى رواية العشرات ورأيهم ولا سيما إن كانوا ممن يجلّ ويحترم »

دعوى يلقيها هذا الأحمق كأنه قرأ تلك الألوف المؤلفة فى جميع العلوم فى عشرة قرون فجاء يعلن نتيجة بحوثه ويزين له شيطانه أن سيسمع له الناس!

والحمق والغرور الظاهران من هذه الفقرة التى نقلناها لك من كتاب الأغلال ، هما الطابع الذى طبع به على الكتاب كله ، لا يكاد يخلو من أماراتهما صفحة من صفحاته . فأنت إذا تناولت الكتاب وجدت ذلك الطابع على غلافه الخارجى إذ تقرأ :

« سيقول مؤرخو الفكر انه بهذا الكتاب
قد بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل.. »

كأن الأمم العربيه عامية عن العقل وطريقه وستبدأ تبصرهما ولكن على يد صاحب الأغلال !

فاذا أنت قلبت الغلاف وجدت نفس الطابع مرة أخرى إذ تقرأ

على الغلاف الداخلى :

ثورة فى فهم العقل والحياة . دراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية والتاريخية والخلقية التى قضت بانحلال المسلمين عربهم وعجمهم وذهابهم فى طوفان الغرب الطاغى .. ثم كيف يمكن أن ينحسر عنهم هذا الطوفان ..

أرأيت إلى هذا الأحمق المغرور ؟ إنه يثور لا على المسلمين وحدهم ، ولكن على الانسانية جميعا فيما يبدو ، يثور عليهم وعليها فى فهم العقل ! ثم فى فهم الدين ! ثم فى فهم الحياة !

وكأنه أراد ألا يدَعك فى شك من مدى غروره وفجوره فى ثورته ودعوته فكتب لك فى أول صفحة تلقاها داخل الغلاف : —

« إن مافى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها امة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة . . . ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية »

يعنى أنه هو وحده من بين المسلمين أو من بين البشر يأتى بثورة فى فهم العقل والدين والحياة ثم لا يكون ما يأتى به — فى كل الكتاب لا بعضه — إلا حقائق أزلية أبدية ! صادقة منذ القدم قبل أن يوجد الانسان ، صادقة إلى الأبد بعد أن يفنى الانسان ، فليت شعر العقل إن كان

مافى كتابه كذلك فكيف يكون ثورة فى فهم العقل أو الدين أو الحياة؟ أفلم تهتد الانسانية بنفسها أو برسل ربها إلى مقومات الحياة والدين الأزلية الأبدية قبل عبد الله بن على القصيمى أو قبل كتاب هذى هى الأغلال ؟

وإذا كان كتابه ثورة فكيف يكون كله حقائق ، وحقائق أزلية أبدية ؟ لو كان بعضه حقا جديدا يضاف إلى ما بيد الناس دهمائهم وعلمائهم من الحق فيما يتعلق بالعقل والدين والحياة لكان عجبا من القصيمى وفتحا للقصيمى لا للناس ،لأن كل حق جديد يكشف عنه يجب أن يتفق مع ما بيد الناس من حق معروف من قديم كى يثبت أنه حق ؛ إذ المحك الذى يعرف به الحق من الباطل فى العلم وعند البحث هو أن يتفق الجديد مع كل المعروف من الحق حتى يمكن أن يفتح له الباب ليدخل فى حظيرة الحق . ان الحق لا يتناقض ولا يمكن أن يتناقض ، إنما الذى يتناقض مع نفسه ومع غيره هو الباطل .

والناس فى العلم وفى غير العلم يستعملون ما بيدهم من الحق محكا لكل جديد يأتيهم يزعم أنه حق : إن اتفق مع المعروف من الحق قبلوه وضموه إلى ما بيدهم من الحق ، وازدادت به ثروتهم من الحقائق قليلا او غير قليل ، حسب مقدار المكشوف الجديد ، وكان تقديرهم للكاشف عن الجزئية الجديدة من الحق فى هذه الحالة تقديراً صادقا ،صغرت الجزئية او عظمت. أما اذا كان الشيء الجديد منافياً لشيء من الحق المعروف فان هذا يكون دليلا لا يرد وشاهداً لا يكذب على أن الجديد زائف باطل ليس من قبيل

الحق فى شىء ، فكيف إذا نافت القضية أو القضايا الجديدة كثيراً من الحق المعروف للناس علمأهم وجهلأهم على السواء ؟ إنها عندئذ تكون لاتستحق النظر وإن نادى عليها صاحبها من الصبح إلى المساء .

فصاحب الاغلال حين وصف كتابه بأنه ثورة فى فهم العقل والدين والحياة ، وأنه فى الوقت نفسه حقائق أزلية أبدية قد دل على نفسه أنه دعىّ فى أهل الحق ، لايدرى ما الحق ولا ما علامات الحق ، إنه قد دمغ كتابه بالبطلان حين طبعه بطابع الثورة على المعروف للناس أجمعين فى أمر العقل والدين والحياة . فان كان فى الناس من يصدقه مع جمعه بين النقيضين فهو مثله لايدرى ماالحق ولا ما التفكير

ثورته على الحياة والدين

ثورته فى فهم الحياة هى فى الواقع ثورته على الاسلام وأهله ، فهو لايفهم الاسلام كما فهمه المسلمون ويفهمونه ، ولايحب أهله ، يرى المسلمين ضعفاء فيحتقرهم لضعفهم وفقرهم ، لأن القوة والمال والجاه عنده هى الجديرة بالاحترام ، وبالسعى فيها والعمل لها ، أما المروءة وأما فضائل الأخلاق فهو إن سواها بالقوة المادية والثراء فقد تساهل معها فى الحساب

ثم هو يرى أن ضعف المسلمين ليس من تركهم الدين ؛ ولكن من اتباعهم إياه ، فهو لذلك يحارب الدين ويسهزىء بقوانينه التى وضعها للناس كلما وجد الى الاستهزاء سبيلا ، أى كلما أمن عواقب الاستهزاء ، فان لم يأمن وظن أن رأيه الذى يعتقد ويود لو اتبعه الناس يعرضه لسخطهم ولرميهم اياه بما هم لابد راموه به من الزندقة والالحاد أو ماهو أكبر منهما لف ودار ، وقرر رأيه بجميع الصور ، ثم تبرأ فى الهامش أو فى الصلب

أن يكون قصد كفراً او إلحاداً ولكنه قصد تقرير الحقيقة ، أو أنه فعل مافعل وأورد ماأورد للاعتبار !

ولا نجد شيئاً اسلامياً سلم من سلاطة هذا الرجل وبذاءته ، لا الدهماء ولا العلماء ، لا الفقراء ولا الأغنياء ، لا الملوك ولا السوقة ، لا الأمم ولا الأفراد ، لا العرب ولا العجم . لا معاهد العلم ولا جهود المسلمين فى سبيله فى الماضى والحاضر . لا شىء من ذلك للاسلام يلقى من صاحب الأغلال الا الغل والضغن ، كأن ذلك كله حال فى الماضى ويحول فى الحاضر بين صاحب الأغلال وبين مايبتغيه من جاه وقوة وثراء

ولو كان هذا الرجل ينبض قلبه بشىء من الحب للاسلام وأهله لكان سبيله فى تنبيههم غير سبيل تجاهل المحاسن وتلمس المساوىء والمعايب ، الموجود منها والموهوم ، واتخاذها وسيلة للتحقير والتسفيه والزراية والتشهير ، ولدعاهم إلى مادعاهم ربهم اليه من العمل بدينه كما فى كتاب الله وسنة رسوله ، بدلا من أن يحاول صرف ذلك كله عن وجهه وصرفهم عنه تارة بسوء التأويل الذى لايمكن أن يكون كله راجعاً الى الجهل ، وتارة بالكتمان الذى لايمكن أن يكون كله راجعاً إلى النسيان ، وتارة بالتشكيك فى الأصول وتارة بالانكار حتى لما هو معروف من الدين بالضرورة كفضل الدعاء وأثر طاعة الله فى حياة الانسان هنا فى الدنيا ، وفضل التوكل على الله حتى مع الأخذ بماشرع من أسباب ، ثم ماهو أدهى وأمر من إنكاره تصرف الله المطلق فى ملكه يفعل فيه مايشاء

وليس يهمنا هنا إثبات شىء من هذا على هذا الرجل المفتون فسترى

مايكفى وفوق ما يكفى لهذا فيما أورده الشيخ حمزة فى رده البليغ من نصوص ؛ إنما الذى يهمنا الآن هو الوقوف على سبب تطور نفسية هـذا الرجل ذلك التطور الذى نقله من آخر مراكز البندول فى اليمين إلى آخر مواقف البنـدول فى اليسـار — من التطرف فى الدين إلى التطرف فى التنـكر للدين.

وتطرف الرجل فى الدين فى الماضى يحدثنا به الرجل نفسه فى فقرة عجيبة من كتابه لعلها من أغرب الاعترافات . إنها تدلك على حاضر الرجل وماضيه معاً فاقرأها: « إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودنى كلما مر بخاطرى عصر مشئوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء، كنت أفر من الحياة ومما يعلى من قيمة الحياة ، فقد كنت لا أجد ما يحملنى على أن أرفع قدمى لو علمت أنى إذا رفعتها تكشف ما تحتها عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء ! وقد ضاعت علىّ من أجل ذلك فرص كان يمكن الافادة منها ، لا يمكن استرجاعها ! كان الغرور الدينى قد أفسد علىّ كل شعور بالوجود وبجماله ، وكنت مؤمنا بأن من فى المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدى لوقفت الأعمال كلها ، ولما وجد العالمَ بداً من أن يخرب ! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ، ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلها، بعين أقل ما فيها الاحتقار والاستصغار ! وكنت لا أبالى بأحد مهما كان عظيما ومهما كان قادرا على النفع والضر . وما كنت أفكر فى أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للاتصـال به ! وكنت لا أخالق إنسانا رغبـة فيما يتخالق الآخرون من أجله . وكان شعارى فى تلك الفترة قول ذلك المغرور

المخدوع مثلى :

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين ، وأن جميع ما فوق التراب وما فى العالم من جمال وطيبات وحاجيات ، ومن أقوام وأمم وشعوب ، تراب ! وكنت لا أبالى أن يحلو لى شىء من ذلك أو يمر ، ولا أن يرضى أو يغضب ، ولا أن يعمر أو يخرب ، كما يقول هذا الشاعر المسكين . وكنت أرى أنى ابذلك أرضى الله ، وانى إذا أرضيته فلن يضيرني شىء .. وكانت الدنيا كلها تدور من حولى من غير أن أدور معها أو أحس دورانها ! وكان يخيل إلىّ وإلى غرورى الدينى الأعمى أنه لا قوة كقوتى ؛ لأن الله معى واهب القوى ! « التعجب من عند صاحب الأغلال » فليقوَ العالَم كما يشاء ، وليجمع من لأسباب ما طاب له ، وليحاول من أجل نفسه مايحاول ، فان ذلك كله لاقيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله ، ومن ترك الإسباب جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها . وكان يبدو لى أنه بقدر إيمان الانسان بذلك ، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والانسانية كلها ، وبقدر استصغاره لها واحتقاره إياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها — بل سبها ولعنها — يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه . وكانت هذه الاعتقادات او الخيالات تهبط بى وتعلو ، وتجعل لى وجوداً خاصاً ، وعالما خاصاً ودنيا خاصة ، تدور من اجل واحد وتوجد من اجل واحد

ايضاً ـ واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب مايظن ، كل مايريد ولو كان فى جملة مايريد إعزاز الامم وإذلالها »

***

هذا ملك كان هذا الرجل فيه من غير شك ، دونه ملك الثراء والقوة والجاه . ان هذه العزة النفسية التى تملأ جوانب كل متدين متوكل على الله حق توكله ، وتملأ نفس من يكون مع الله بالقلب والنفس والروح والبدن ، هى أقصى ثمرة الملك المادى فى الدنيا ، ثم لاينالها كثير من أهل المال والسلطان، ومع ذلك فقد استبدل بها ذلك الرجل طائعاً مختارا حالا الله أعلم بها وبه فيها ،فما اظنه نال من القوة والمال كثيرا ، وسيدأب وينصب فى سبيلهما من غير ان ينال مايصبو اليه منهما كل من يرى المادة هى كل شىء وأن ليس بعد الدنيا شىء ، وسيجد نفسه مضطرا إلى النزول على حكم الدنيا وأهلها وأسبابها التى يرى أنها طبيعية حتمية لامفر منها . فيبذل فى سبيل النجاح والمال من ماء وجهه ما كان يصونه حين كان فقيراً مع الله ، ولم يكن الرجل فيما بلغنا مع الفقراء حقا إلا بالنسبة إلى مايطمح اليه ويطمع فيه الآن ، فقد كان له راتب من الحكومة السعودية لعله كان أربعين جنيها فى الشهر ، ولعله لايزال يأخذه إلى الآن من غير أن يرضى عن الحياة ويستشعر من القوة والعزة فيها ما كان يملؤه حين كان مع الله بالصورة التى وصف

وانك لتجد مفتاح ضلال هذا الرجل فيما قص علينا من أمر حياته الدينية قبل أن يفتتن عن الدين . لقد أراد أن يسلك سبيلا من الزهد فى الدنيا ليس هو من رجاله ،فشدد على نفسه وعصى الله ورسوله بتشدده ،

فقد نهى الرسول ﷺ عن التشدد والتنطع فى الدين فى أكثر من حديث كريم قال «لن يشادّ هذا الدين أحد إلا غلبه» وقال «ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ان المنبتّ لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وقال «من رغب عن سنتى فليس منى» فى حديث مشهور نهى فيه رجال عن حرمان انفسهم مما احل الله لهم من الطيبات؛ ولما بلغه تشدد عبدالله بن عمرو فى الصيام والقيام نهاه وقال له «لا صام من صام الابد» وكذلك امر الله سبحانه فى مواطن كثيرة من كتابه بالأخذ من الطيبات التى احل لعباده (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين. قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال سبحانه (ياأيها الرسول كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم) وقال سبحانه (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال؛ كلوا من رزق ربكم واشكروا له: بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم)

فصاحب الأغلال لم يطع الرسول فيما أمر من القصد، وأوغل فى الدين بغير رفق؛ فخسر الرحل والراحلة وانقطع به الطريق.

حرّم على نفسه الطيبات، وبالغ فى حرمان نفسه رجاء الدرجات العلى عندالله؛ وما كان عليه فى ذلك من بأس لو أنه كان من رجاله، لكنه لم يكن هنالك

وكأنه لما عجز عما كلف به نفسه مما لم يكلفه الله، وبرم بالزهد ومطالبه، صادف أن قرأ بعض ما نقل إلى العربية من مذاهب الماديين

فى الحياة ، وبعض النظريات القديمة فى النشوء ، وبعض محاولات من يحاولون تعميم نظرية نشوء الأحياء على النفس والعقل والروح والدين ، فلا يرون هناك إلا المادة ، ويرون الدين نتيجة طبيعية لتطور الانسان ، لا شريعة إلهية من عند الله بالمعنى المعروف فى الأديان . صادف المسكين هذا فقرأ ولم يهضم ، وغره نسبة تلك الآراء إلى العلم فأنزلها كلها من الثبوت منزلة واحدة ، وقبلها كلها من غير تمييز ولا مقدرة على التمحيص.

ولقد كان بيده وسيلة التمحيص لو أراد ولم يكتسحه سيل الشك الذى فتح على نفسه ، كان بيده القرآن الذى كان يوقن عندئذ أنه من عند الله ، وأنه كلام الله الذى أنزله على رسوله محمد بن عبد الله ، فكان يستطيع أن يعرض ماقرأ على مااستيقن من كلام الله ، فما لم يمكن التوفيق بينه وبين كلام الله نبذه من غير تردد لو كان يقينه وإيمانه إذ ذاك قائما على أساس من البرهان ، إذ ليس مما يجوز فى عقل تكذيب كلام الله عند من يؤمن به ؛ وتصديق نظريات الناس ، لكن تدينه فيما يبدو كان أساسه التقليد رغم أنه كان فيه من المتشددين الملحمس . فأخذت الشكوك تنوشه ، ومر المسكين فى فترات من العذاب النفسى يستطيع أن يتصوره الانسان ، حتى استقر أمره تدريجياً على مااستقر عليه ولو لينجو من ذلك العذاب

ولو أنه أطاع الله فلم يقف ما ليس له به علم من تلك الآراء والفروض المنسوبة إلى العلم والتى يعلم العلم أنها ليست من الحقائق ولا من سنن الفطرة ولكنها تفسيرات لوقائع يقول بها العلم اليوم ويجيزون عليها أن تنبذ غدا ، لو أنه اهتدى بهدى الله فى هذا لنجا من الشك وآثاره ، لكنه فى اللحظة

التى استيقن فيها ما يجيز العلم بطلانه من النظريات أصبح مستحيلا عليه التوفيق بين كل تلك النظريات المتضاربة ـ حتى فيما بينها ـ وبين يقينيات الدين ، إذ من المستحيل التوفيق بين الحق والباطل مهما اجتهد الانسان . وقد سلم صاحب الأغلال فيما بينه وبين نفسه بباطل تلك النظريات ، فلم يبق أمامه إلا التخلى عما كان يعرف أنه الحق من الدين ، لأن تدينه كان قائما على التقليد لا على البرهان

وقضى الأمر ، وصدّق إبليس ظنه على عبدالله بن على القصيمى فاتبعه ومن المستحيل أن ينقاب متطرف فى الدين متطرفا ضده مرة واحدة ؛ كما يستحيل أن ينتقل البندول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دفعة واحدة ؛ لابد من التدرج ولابد من الاستدراج . ويستطيع الانسان أن يتصور استدراج الشيطان لهذا المسكين قبل وبعد إيمانه بما يناقض القرآن . يستطيع أن يتصور كيف زين اليه أن يقبل من أحاديث الرسول وينبذ ، لا لطبق أصول علم الحديث ولكن وفق الهوى . ينبذ ما صحح علماء الحديث إذا ناقض الحديث هواه ، وقد يقبل ما رفضوا إذا وافقه . وستجد أمثلة من ذلك فى الكتاب الذى بين يديك نبه اليها مؤلفه المفضال تنبيه محدث خبير ، وبين كيف أن صاحب الأغلال ينبذ من الأحاديث ويقبل ، وطريق ما نبذ هو عين طريق ما قبل . وليس لذلك من تعليل إلا ماذكرت لك ، ولو كان يصدر فى ذلك عن عقل لنبذ الجميع أو لقبل الجميع ما دام الكل قد اتحد فى الاسناد . وأكبر الظن أن صاحب الأغلال قد صار إلى الحال التى لايقبل فيها من الحديث شيئا ولكنه يحتج

بما يظن أن فيه حجة له عند المؤمنين بالحديث

زين لصاحب الأغلال التحلل من الحديث أول الأمر فيما نظن ؛ والاقتصار على القرآن رغم تحذير الرسول أمثاله فى قوله ﷺ «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدرى ! ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه »[1] وكما كان الأخذ فى الحديث بالهوى سبيلا إلى نبذ الحديث ، كان كلاهما سببا إلى القول فى القرآن بالرأى وبغير علم رغم تحذير الرسول أمثاله فى قوله ﷺ « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[2]

وهذا الرجل يقول فى القرآن بغير علم بل وبغير عقل ، لأن أقل ماينبغى على المتعرض للقرآن بعد التزام أصول اللغة أن يراعى سائر القرآن فلا ينقض بعض آيه ببعض ؛ أى لا يفهم بعض آياته على وجه مناقض لبعض آياته الأخرى . لكن صاحب الأغلال لا يراعى اللغة ولا يراعى امتناع التناقض فى القرآن . فالله سبحانه يقول (قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وصاحب الأغلال يقول « ثم لنعلم أنه لا خير يمكن أن يصيبنا إلا ماتقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا ، تدفعنا أنانيتنا الخالصة الخاصة اليه » . هو لم يذكر الآية ولكن نص عبارته يدل بوضوح أن الآية فى ذهنه وهو يكتب كأنما هو يريد أن

---

(١) رواه الشافعى فى رسالته ص٨٩ تحقيق القاضى أحمد شاكر

(٢) رواه الامام ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير من مطبوعات دار الآثار الوطنية بدمشق وتحقيق الشيخ جميل افندى الشطى مفتى الحنابلة فيها

يورد نقيض الآية فى توقح واجتراء

وينكر على الناس فهمهم للقضاء والقدر ، ويزعم أن القضاء معناه الفراغ والانتهاء ، لا معنى له فى القرآن غيره ، وأن القدر بجملته وجملة استعمالاته فى القرآن وفى الشعر أيضاً « يراد به التقدير أى جعل الشىء ذا مقادير معلومة ، أى يراد به جعل الشىء منظما فى كمه وكيفه .. » وكل الآيات التى جاء بها تفيد هذا ولكنها تفيد أيضا التقدير من ناحية الزمن مقداراً وتحديد أجل ، ولو قال هذا لما كان بينه وبين المسلمين خلاف ، لكنه يرى أن اعتقاد المسلمين فى القضاء والقدر من أقوى أسباب تأخرهم فأراد أن يصرفهم عما اعتقدوا بتأويله آيات القرآن لهم تأويلا يتناقض مع آيات أخرى فى القرآن كالآية التى أشرنا اليها آنفا ، وتعمد من غير ذكر لها أن يناقضها بقوله « لاخير يمكن أن يصيبنا إلا ماتقدمه لنا أنفسنا» الخ وكالآية الكريمة التى احتج عليه بها الاستاذ الناقد فى رده : آية سورة الحديد (ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وصاحب الأغلال لايمكن الا أن يكون حفظ الآيتين فيما حفظ من القرآن أيام زهده وتبتله ، فهو يكتمهما عمداً لأنه لايجد لهما تأويلا لا ينقض مذهبه الذى يدعو اليه ، ولا ماذهب اليه فى فهم آيات أخرى مثل بعض الآيات التى نزلت فى غزوة أحد .

ويلتحق بهذا الباب تجاهل الرجل الآيات القرآنية التى يعلم أنها تنقض مذهبه فى مسألة الأسباب وخضوعها لمسببها سبحانه ، ومسألة الطاعة والمعصية وأثرهما فى هذه الحياة

الطاعة والمعصية : فعنده ان طاعة الله ومعصيته لا أثر لهما مطلقا فى نتائج السعى والكدح لهذه الحياة . إن كان لهما أثر فأثرهما سيكون فى الآخرة ، أما فى هذه الدنيا فالفعل كله للأسباب المادية والقوانين الطبيعية المسيطرة على الحياة ، والتى يستوى أمامها المؤمن والكافر والطائع والعاصى. بل هو يتجاوز هذا ويزعم أن الله جل جلاله لا يكون عادلا إن هو فضّل فى الدنيا من يطيعه على من يعصيه إذا ما استويا فى العمل، فكيف إذا بَز العاصى المؤمن فى الكدح والجهاد ؟

وليس مُهماً أن يعتقد صاحب الأغلال هذا أو ماهو شر من هذا ، فهو حر فى ذات نفسه إن شاء آمن وان شاء كفر ، لكنه يزعم للمسلمين أن من أسباب تأخرهم وتفوق الأجنبى عليهم اعتقادهم ان طاعة الله تقدم ، وأن معصيته تؤخر فى هذه الدنيا ، وأن اعتقادهم هذا يخالف القرآن

والقرآن الكريم ينقض زعمه هذا، وهو يعلمه . يعلم أن الله قص علينا فى كتابه خبر الأمم الماضية الذين أهلكهم الله لما كفروا به وعصوا رسله ؛ فى سورة يونس وهود والشعراء وغيرها من سور القرآن الكريم : أهلكهم بنفس العوامل التى يقول هذا الرجل إنها طبيعية لا تخضع لسلطان ولا تتأثر بطاعة ولا معصية ـ بالخسف والرجم والأعاصير والسيل والطوفان ـ وأهلكهم بغير هذه العوامل الطبيعية كالصيحة والطير الأبابيل ، فكيف أمكن لهذا الرجل أن يتجاهل تلك السور وأمثالها ويتهكم بمن يسترشد بها ويقيس عليها ، إن كان يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر كما يقول فى آخر الكتاب ؟ وإن كان لا يؤمن بكتب الله ولا

بالقرآن فكيف أطمعه شيطانه الغرور - حين زعم للمسلمين ما زعم - أنهم سيصدقونه ويكذبون القرآن ؟

ومن عجب أن يحتج صاحب الأغلال لرأيه السخيف بآيات فى القرآن لم ترد إلا لتوكيد أن الكفر والمعصية يهلكان وأن الايمان والطاعة ينجيان. احتج لاطراد ما سماه الأسباب الطبيعية بقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وأبى عناده وأبت خيانته للبحث وروح الحق أن ينظر فى مساق هذه الآيات فى القرآن . ولو كان مخلصاً يريد الحق لرجع إلى مواطن تلك الآيات الكريمة ولعرف أنها كلها سيقت لا لتقرير اطراد السنن التى يسميها طبيعية ولكن لتوكيد أن هلاك الأمم بالكفر والمعصية سنة اجتماعية لله ليس لها تبديل ولا تحويل . ففى سورة فاطر (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الارض إنه كان عليما قديرا)

وفى سورة الفتح (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الادبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وفى سورة الأحزاب (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من

قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

إن الله قد علم أن من السهل أن يؤمن الناس كما آمن صاحب الأغلال بأن الظواهر الطبيعية تجرى على سنن ليس لها تغيير ولا تبديل ؛ لكن من العسير الصعب أن يؤمن الناس أن لله فى الاجتماعيات سنناً لاتتغير أيضا ولا تتبدل ، منها هلاك الناس بالكفر والمعصية ، ونجاتهم بالايمان والطاعة . فاقتضت حكمته ورحمته سبحانه أن يلفت الناس إلى هذه السنن المتعلق بها مصيرهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وأن يجعل توكيده عدم تخلف سننه مُنصباً على الاجتماعى منها لا على مايسميه الناس بالطبيعى علهم يؤمنون ويعملون بمقتضى إيمانهم قبل أن يمسهم من الله عذاب لا ينفعهم معه إيمان

وكما أن تلك سنة الله فى الأمم فكذلك هى سنته فى القرى وفى الافراد وآيات القرآن فى هذا الباب كثيرة لتحذير الناس من عاقبة الكفر والطغيان مثل (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لاتركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون . قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) سورة الانبياء

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من

دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون)
سورة الأحقاف .

وصاحب الأغلال يدعو المسلمين إلى عبادة القوة والمال والانقطاع لهما ؛ وطلب العلم من أجلهما لا من أجل الدين ، حتى يكونوا فى القوة أنداد الغرب وفى المال أنداد اليهود ، متجاهلا كل هذه الآيات وأمثالها رغم علمه بها وترديده لها أيام كان يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

والافراد شأنهم فى الطاعة والمعصية وأثرهما شأن الجماعات ، يعلم ذلك أيضا صاحب الاغلال ، لانه قرأ خبر قارون فى سورة القصص ، وكيف أنكر أن يكون لله عليه نعمة ، معللا قوته وغناه بما يعلل به صاحب الاغلال اليوم قوة القوى ، وغنى الغنى (قال إنما أوتيته على علم عندى ! أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً؟ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)(فخسفنا به وبداره الارض! فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) قرأ صاحب الاغلال هذا من غير شك كما قرأ نتيجة الحوار بين الكافر والمؤمن اللذين ضربهما الله مثلا للناس فى سورة الكهف (وأُحيط بثمره فأصبح يُقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أُشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا)

قرأ هذه الامثلة الخاصة كما قرأ المثل العام فى قول الله سبحانه من سورة الزمر (وإذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ! بل هى فتنة ؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون ، قد قالها الذين

من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا ؛ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين . أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

ولو شئنا لضاعفنا لصاحب الأغلال الآيات عله يتذكر ويرجع إن كان يؤمن بالقرآن حقا كما يقول ، أما إذا ركب رأسه واتبع هواه وحاول تحريفها كما حرف غيرها من الآى ليثبت أن الله سبحانه لا يتدخل فى الأسباب ، ولا يكشف الضر بالدعاء ، ولا يبسط الرزق أو يقدره كما يشاء ؛ ولا يسلب النعمة من أحد ينسبها إلى عامه هو لا إلى الله ، كما ينسب صاحب الأغلال مال ذوى المال وقوة ذوى القوة ، وكما يريد من الناس أن ينسبوا ـ أما إذا فعل ذلك فانه يكون قد حقت عليه كلمة الله التى قررها فى قوله سبحانه (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون)

مسألة الأسباب

إن مسألة الطاعة والمعصية وأثرهما فى حياة الانسان فرع من مسألة عامة هى مسألة الاسباب ، وكان من الممكن أن يخرج صاحب الأغلال من مأزق الشك الذى لابد أن يكون وقع فيه فى تطوره الاعتقادى ، بتوفيق مبدئى بين اعتقاده الدينى القديم واعتقاده الطبيعى الجديد لو أنه اعتبر طاعة الله سبباً من الأسباب الفعالة فى هذه الحياة ـ وهذا طبعاً قبل أن يتطرف فى تفسير التطور ويعتبر الروح نتيجة لتطور المادة والطاقة ، ومظهراً من

مظاهرهما ، أى فى الوقت الذى كان يعتبر فيه الروح أهم ركنى إنسانية الانسان وان المادة لا اختيار لها . فى ذلك الوقت حين عرضت له مسألة الأسباب الطبيعية وعدم تخلفها كان يستطيع أن ينزل الروح منزلة المادة فى وجوب طاعتها لله ، لانه يقر بأن المادة لا محيص لها من اتباع السنن التى سنها الله لها وإلا هلكت . كذلك الروح لا محيص لها من اتباع السنن التى سنها الله لها وإلا هلكت . ولابد أن تختلف سنن الروح عن سنن المادة بقدر الاختلاف بين طبيعة المادة وطبيعة الروح ، وبقدر امتياز الروح على المادة بأن لها اختياراً وعقلا ، وأن المادة لا اختيار ولا عقل لها . وسنن الله التى سنها للروح تتمثل فى الدين الذى أنزله الله لهداية الانسان . فلم يكن للانسان بد من أن يطيع الدين طاعة لله وإلا هلكت روحه كما يهلك النجم والشجر لو لم يطع الله ، غير أن الهلاكين لابد أن يتميزا ويختلفا باختلاف الطبيعتين ومراعاةً لعامل الاختيار العقلى فى الروح . لذلك كانت المادة وما اليها يعجل لها وله جزاء المعصية رأى العين فى الدنيا ، أما الروح فالحكمة فى منحها الاختيار تقتضى تأجيل الجزاء تأجيلا قليلا أو كثيراً حسبما تقتضيه حكمة الله ورحمته ، وإلا فأى فرصة تكون هناك للانسان لو عجل له العقاب أو عجل له الثواب ؟ إذاً لأجبر على الايمان إجبارا لانه يرى الكفر والمعصية تتبعهما العقوبة فوراً ، ويرى الايمان والطاعة يتبعهما الثواب ، وإذاً لتعطلت الحكمة فى منح الروح الاختيار . وهذا الفرق بين الجزاءين من ناحية التعجيل والتأجيل هو سبب خفاء الاثر المادى للطاعة والمعصية الروحيين وإن كان أثرا حتمياً كأثرهما فى عالم المادة

من غير تفريق

فطاعة الله هى إذن السنة العامة فى ملكوت الله فى عالمى المادة والروح ،لابد منها للنجاة والسعادة وإلا كان الهلاك الحتمى الذى ليس منه فكاك . وعالما المادة والروح تتساند قوانين الله فيهما ولا تتناقض؛ أى لابد للانسان من طاعة الله سبحانه فيهما جميعاً قبل أن تتحقق سعادة الانسان كاملة . ومن هنا جاء تعطل النجاح المادى لبعض المؤمنين الذين هم أكثر طاعة فى عالم الروح منهم فى عالم المادة ، وتكثّر نجاح بعض الكافرين والعاصين الذين هم أكثر طاعة فى المادة منهم فى عالم الروح . وطبعاً هناك درجات كثيرة لا تحصى من الطاعة والمعصية فى كل من العالمين وفيما بينهما وفى نتائج ذلك كله . فمن الخطأ الكبير التعميم مما يبدو للانسان على سطح الحياة أو فى باطنها لأن الانسان لايمكن أن يرى إلا جزءاً صغيراً جداً مما يجرى ، كما أنه لا يفهم إلا جزءاً مما يرى . ولو فهم كل ما يرى لما أمكن أن يفهمه حق الفهم ؛ لأن ما يراه جزء من كلّ خاضع لله تجرى فيه سننه وتجرى عليه إرادته .

وصاحب الاغلال ومن لف لفه يؤتون من ناحية العجز عن التوفيق بين سنن الله التى يرون انها يجب أن تكون صارمة، وبين إرادته التى يرون أنها تستتبع التنقص من الصرامة ، والتدخل فى السنن بالتغيير والتبديل . وهم حين يرون هذا يقعون فى نفس الغلطة التى يرمون بها خصومهم : غلطة قياس الله سبحانه على الانسان . هم يرمون المؤمنين بالله بأنهم يقيسون الله على أنفسهم فينسبون اليه من الصفات مايجدونه فى أنفسهم وفى عالمهم

ويقعون هم فى نفس العيب الذى يعيبون به المؤمنين بقياسهم إرادة الله على إرادة الناس ، ويخلقون لأنفسهم الصعاب والمشاكل الروحية والنفسية والعقلية بتوهمهم أن إثابة الطائع ومعاقبة العاصى فى هذه الحياة وبعدها تستلزم المحاباة واتباع الهوى بالمعنى الذى عرفوه فى أنفسهم وفى الناس . أفمن المستحيل أن يعاقب الله ويثيب كما يشاء طبق العدل وطبق الحكمة ؟ وإذا لم يكن ذلك مستحيلا فقد انحل الاشكال لو كانوا يفقهون .

الواقع أن العيب الذى يُرمى به المؤمنون من هذه الناحية هو عيب خصومهم وحدهم لا عيب المؤمنين . إن المؤمنين يصفون الله سبحانه بما وصف به نفسه فى كتبه ، فى القرآن والانجيل والتوراة . ولو لم يصف سبحانه نفسه بصفات الكمال لوجب أن يصفه بها العقل - عند من يسلم طبعاً بوجود الله . إن من غير الممكن ولا الجائز فى العقل أن يكون المخلوق مريداً مختاراً ويكون خالقه مجرداً عن الارادة والاختيار . ومثل الارادة والاختيار بقية صفات الكمال . فالغلطة ليست فى اسناد الصفات لله ، ولكن فى تصورها . والفصل بين الحق والباطل فى ذلك هو تحقيق الكمال المطلق اللائق بذات الله سبحانه .

وتقييد الله سبحانه بالقوانين الطبيعية بالمعنى الذى فهمه ويفهمه أمثال صاحب الاغلال هو فى حقيقته ونتيجته تجريد لله سبحانه من الارادة والاختيار . إنه تقييد لا يمكن أن يكون إلا فى الوهم قياساً على فهمهم العدل فى تطبيق قوانين الانسان فى حكوماته ، تلك القوانين التى يجب أن تطبق على جميع رعايا الأمة الواحدة ذات الحكومة الواحدة من غير محاباة

ومن هنا القياس الأخرق الذى قاس به صاحب الأغلال حكومة الله على حكومة الناس حتى قال فى كتابه : « وإن حكومة يعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أشغالهم وأعمالهم لأنها تفرق بينهم فى الحب والبغض ، لان منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الاحزاب والمبادىء والاشياء الأخرى — ان حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات وهى حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الايمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة ؟ »

إن صاحب هذا الكلام يرمى المتدينين أو المسلمين بدائه وينسلّ ، يرميهم بأنهم يقيسون الله على قدر أنفسهم ويقيس هو حكومة الله على حكومة الناس — أهواء وأحزاب وشيع إلى آخر ما هنالك . ثم هو مع ذلك لا يحسن القياس . فالقياس ينبغى أن يكون أساسه الطاعة — طاعة القوانين — والجد والاخلاص فى العمل . فاذا كانت القوانين توجب احترام الحاكم وتعاقب من يطلق اللسان فيه كان من الواجب معاقبة من يخالفها فى ذلك من غير تفريق . وإذا كانت القوانين تقرر عقوبات على مخالفيها فى كل حكومة راشدة كان من الظلم ومن الفوضى أن يسوى بين الطائع والعاصى فى المعاملة فلا يعاقب العاصى ولا يقدر المطيع . فلو كان صاحب الأغلال يعقل ما قاس حكومة الله على حكومة البشر ، أو على الأقل لأحسن القياس

إن قوانين الله فى ملكوته يجب أن تطاع . وأم هذه القوانين هى

حب الله وتوقيره واتباع أوامره واجتناب نواهيه — هى عبادته كما ينبغى أن يعبد فيما بين الانسان وربه ، وفيما بينه وبين الناس .

هذا هو القانون العام . أما التفصيل فيجده الانسان فى الدين الذى أنزل الله ،وفى الفطرة التى أمر الله الانسان أن يلتمس أسرار الله فيها ؛ فهما ناحيتان متتامتان لكن شتان ثم شتان بينهما، فالمادة مادة والروح روح ؛ والتسوية بينهما كالتسوية بين المعصية والطاعة :خرق وظلم وعدوان

هما مصدران للحق ليس لهما ثالث ولا يمكن أن يكون : دين الله والفطرة . والاسلام هو دين الفطرة ،بل هو بالنسبة للانسان فطرة الله نفسها كما وصفه الله فى كتابه ،وهو وصف لا يمكن أن يكون جاء عن خيال انسان : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ودين الله المتمثل فى القرآن أعم وأوسع من العلوم الطبيعية كما نعرفها ،لانها جزء منه شملتها بعض آياته اجمالا وتركت تفاصيلها يطلبها الانسان بأمر الله . ثمن العجب أن يتصور متصور أن يقع بين الاسلام وبين الحق من العلم — طبيعى أو غير طبيعى — تناقض . ومن الخذلان — ونعوذ بالله من الخذلان — أن يتكلف مسلم ما ليس له به علم ، فاذا عرض له فيما تكلف ما لا يتفق مع الاسلام ، لزم ما تكلف وشك فى الاسلام!

إن استباحة الشك فى كل شىء بدعة أصيب بها شباب هذا الزمان يظنونها حرية فكر وانطلاقاً من الاغلال . وقد أصيب صاحب الاغلال بهذه الآفة فكان نتيجتها كتابه وإن لم أجده أشار اليها فيه الا بقوله

« ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة مالم تشك ومالم تفهم . فالشك والفهم شرطان ضروريان فى تحصيل الحضارة والعلم والقوة والذى لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم » وصاحب الكتاب لا يعرف أن يشك لانه لا يعرف شروط الشك السليم، شروط الشك العلمى المبنى على أساس من التفكير العلمى . أما الشك للشك طلباً لحرية فكرية مزعومة وتحللا حتى من قيود التفكير ، فخير منه سهولة التصديق .

إن التصديق بالباطل كالشك فى الحق ، كلاهما بالغ الضرر بالانسان . فالفكر الذى يقبل شيئاً من الباطل على أنه حق يفسد على نفسه كثيراً من الحق الذى لديه ، لان كل تفكير يُدخل فى قياساته ذلك الباطل القليل سيؤدى حتما إلى نتيجة باطلة تعتبر هى أيضاً عند المفكر حقاً من الحق ، فتلد له باطلا آخر بالتزاوج مع الحق أو الباطل الذى عنده — وهكذا دواليك . والشك فى الحق يفقد المفكر قوة هائلة كانت لديه ، بانتقاص جزئيات الحق عنده فلا يستطيع فى التفكير تحليقاً ، كالطائر الذى نتف من جناحيه الريش . لكن ضرر الشك فى الحق لا يقف عند هذا ، لانه يستتبع حتما الاعتقاد فى باطل أدى إلى ذلك الشك ، أو باطل هو ضد الحق الذى شك فيه

فضرر الشك فى الحق مزدوج : لانه يعطل الحق فلا ينتفع به فى تفكير ، ويكثر سواد الباطل عند الشاك فيفسد عليه التفكير . والمسارع إلى التصديق يشترك والشكاك فى عاقبة تكثير سواد الباطل ، لكنه يظل على أى حال منتفعاً بالحق الذى لديه ، والذى لم يفسده الشك عليه .

وأسوأ أنواع الشك هو الشك الدينى ، خصوصاً فى المسلّمات التى أجمعت عليها كل الانسانية فى جميع الأديان مثل وجود الله سبحانه وبعثه الرسل ، وبعث الانسان بعد الموت . وأقل الشاكين فى الدين عذراً مسلم نشأ على الاسلام وقرأ القرآن ولو ببعض فهم ،لأن الاسلام أكثر الأديان احتضاناً للعلم وأوثقها اتصالا به ، وأشدها احتراما للعقل واعتماداً عليه . فلو أن المسلم حين تعرض له الشبهات يتمسك بحبل الاسلام كما يتمسك الغريق بحبل النجاة ، ويتطلب من الشبهات مخرجا ، اذن لوجد المخرج من غير أن يخالف العقل أو اليقينى الثابت من العلم . لكن الشرط الضرورى لهذا ألا يقبل مطلقاً شيئاً غير يقينى الثبوت حتى ولو قال بذلك الشىء فريق كبير من العلماء ،فان وجود فريق من العلماء وإن قلّ لا يقول به، دليل كاف على احتمال بطلانه . وقد يكون فى ذاته باطلا فلا يتفق مع الثابت من الدين فيضل المسلم به كما ضل صاحب الأغلال .

وصاحب الاغلال لا يقتصر على قبول كل ما وصل إلى سمعه من أكثر الآراء العلمية تطرفاً ولكن يزيد عليه ويتوسع فيه ما استطاع . فهو مثلا يقبل نظريات التطور بحذافيرها من غير أى نقد لها فيما يبدو وإلا - وهو يتأول صريح القرآن بما لا يتفق مع صريح اللغة ولا مع سائر القرآن - لوجب أن يشك فى نظريات تطور الانسان لأنها أولى بالشك لانها لا تعتمد فى الغالب إلا على بعض أجزاء هيكل الانسان - جمجمة هنا، أو بقايا هيكل هناك . وأحياناً لا تعتمد إلا على سن واحدة يبتنى العلماء عليها بقية الهيكل - فهل من أجل هذا يستبيح مسلم أن

يشك فى القرآن إذا أعوزه التوفيق بين آياته ونظريات التطور فى خلق الانسان ؟ على أن التوفيق بين مبدأ التطور العام وبين القرآن سهل ميسور . وعلى أى حال فالتطور جملة أدل على فعل الله سبحانه لا كما يتصور الطبيعيون .

ويجاوز صاحب الاغلال تطور الاحياء إلى الجماد فيقول بتطوره ولم يقل به أحد ، ويذهب فى ذلك إلى أبعد الحدود ، فيحاول أن يفسر البعث بالتطور بعد أن يؤكد اطراد الترقى التطورى ، واستمرار التطور من غير انقطاع ولا انتكاس ؛ مع أن هذه نقطة كثر فيها الخلاف بين التطوريين . وقد يستقيم له تخيل سماوات غير السماوات وأرضاً غير الارض عن طريق التطور كما حاول فى تفسير (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) لكن التطور المطرد الترقى حتى فى الجماد ان استقام مع هذه الآية فلا يستقيم مع آيات نسف الجبال وانفطار السماء وانتثار الكواكب . وحتى لو استقام مع هذه فلا يمكن أن يستقيم مع بعث الأموات فرداً فرداً مهما اتسع خيال القائل بالتطور الآلى الناشىء عن طبيعة المادة وطبيعة الوجود الذى يقول به صاحب الكتاب

صاحب الاغلال والامانة العلمية :

ومهما يكن تاريخ التطور الاعتقادى لصاحب الاغلال فقد تطور فعلا إلى ما تطور اليه مما يتمثل فى كتابه ويتبدى من خلال الرد عليه . لكن بقيت نقطة لها أهميتها ينبغى التساؤل عنها ، إذ على نتيجة بحثها يتوقف الشىء الكثير من الحكم على بواعث صاحب الاغلال .

هل كان صاحب الاغلال مخلصاً فيما يدعى من طلبه الحقيقة بما كتب ؟ إن الانسان قد يؤتى من ناحية الخطأ فى التفكير أو من ناحية قلة العلم بل قد يبالغ فى الشك من غير مبرر فلا يلحقه من ذلك عار ، لان اخلاصه فى طلب الحق يشفع له . فلننظر أين صاحب الأغلال من الاخلاص

إن أول مانلقى من دلائل عدم اخلاصه فى طلب الحق تجاهله الكثير من آيات القرآن المضادة لمذهبه ـ ان الرجل جابه المسلمين بشىء كثير فلا يمكن تعليل تجاهله تلك الآيات بالخوف من عاقبة بحثها وعرض مذهبه عليها أو تفسيرها تفسيراً يوافق مذهبه الذى ساقه فى الكتاب . وقد كان يستطيع إذا عجز عن التوفيق ان يعرض الأمر من طرفيه فى كتابه مبيناً موقف القرآن الكريم والحجج التى تشهد للرأى الذى لم يستطع التوفيق بينه وبين القرآن ، ثم يطلب إلى أهل العلم والرأى حلا للمشكل الذى وقع فيه . هذا إذا كان يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر كما ذكر فى آخر صفحة من الكتاب .

لقد أنكر أن يكون لله سبحانه سلطان على العوامل الطبيعية من نحو تسخيرها لقوم إذا أطاعوه أو إرسالها على قوم إذا عصوه . وقد رد عليه مؤلف هذا النقد الجليل بالآيات القرآنية المقررة لمعجزات الرسل ، وذكرت هذه المقدمة غير ذلك من الآيات القرآنية فى اهلاك الأمم التى أصرت على عصيان الرسل ؛ وكلا الضربين من الآيات أغفله صاحب الأغلال لكن هناك آيات أخرى تتصل بحياة البشر ولها نفس دلالة الصنفين السابقين

فمن آيات التخويف قوله سبحانه فى سورة الاسراء : (ربكم الذى

يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟ . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟)

ومن آيات المن واظهار القدرة : قوله سبحانه من سورة النور : (ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)

ومن سورة الروم (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله .) الآيات

فهذه آيات نص فى موضوعين على الأقل من المواضيع التى خالف فيها صاحب الاغلال اجماع المسلمين ، وهو طبعا يعرفها وكان عليه أن يعرض عليها مذهبه الذى ذهب اليه إن كان لا يزال يؤمن بالقرآن

لكن لا يزال هناك احتمال بعيد ضعيف أن صاحب الكتاب لم يكن

يعرف هذه الآيات وأمثالها ومواضعها من القرآن . فهاك آيتين لا يمكن أن يتطرق اليهما مثل هذا الاحتمال ، لأنه استشهد باحداهما وأختها تنقض معناه الذى استشهد عليه، وهما آيتا الأحزاب خطاباً منه سبحانه لزوجات الرسول (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً) . فقد فسر (واذكرن) بمعنى علّمن الرجال والنساء ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ولم يتعرض لقوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) بصرف النظر عما فى معناه الذى ذهب اليه فى (واذكرن) من غرابة وتكلف وبعد .

وهاك شاهدا آخر أظهر من هذا . فقد زعم صاحب الاغلال أن الاسلام يسوى بين المرأة والرجل فى كل شىء ، وأورد دليلا على زعمه قوله تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وسكت عن بقية الآية (وللرجال عليهن درجة) وهو سكوت ينطق بقلة حظ صاحبه من الأمانه والاخلاص .

على أننا إذا جاوزنا استشهاده بالقرآن إلى استشهاده على سوء رأى بعض أئمة الدين وجدناه يخون فى الاستشهاد هنا كما خان فى الاستشهاد هناك . لكنا لن نستطيع أن نشير إلا إلى مثلين مما كتب فى أمر التوكل على الله وما افتراه فيه على المسلمين .

أول المثلين ما نقله عن عوارف المعارف للسهروردى من حكاية يشنع

بهما على التوكل والمتوكلين : حكاية القنبرة العمياء التى لما شاهدها أحد المتوكلين فى البادية تنشق لها الأرض عن سكرجة فيها سمسم وماء فأكلت وشربت رجع هو عن السعى والطلب . والحكاية موجودة فى السهروردى حقاً لكن موجود بعدها غير بعيد منها حكاية المتصوف الذى خرج إلى البادية وأقسم ألا يسأل أحداشيئاً حتى كاد يهلك فنودى ان وعزتى وجلالى لا رزقتك حتى تدخل الأمصار ، فدخل فرزق فنودى مرة أخرى : أردت أن تبطل حكمتى فى الأسباب ، ألم تعلم أن رزقى العباد على يد العباد أحب إلى من أن أرزقهم بيد القدرة ؟ هذا أو قريب من هذا هو خلاصة الحكاية الثانية ، وهى ضد مراد صاحب الأغلال من الحكاية الأولى على خط مستقيم ، وقد كانت الأمانة تقتضى أن يذكرهما معاً أو يتركهما معاً ، لا أن يقتصر على ذكر مايلائم مراده من التشنيع .

والمثل الثانى هو ما افتراه على الامام الغزالى فى أمر التوكل ، فقد اقتبس جملة انتزعها من موضعها فدلت على غير مراد الامام وترك آراء الغزالى فى التوكل وشروطه ومراتب أهله الى آخر ذلك التحليل العلمى الدقيق مما تجده فى باب التوكل فى الاحياء ، ومما هو وما رماه به صاحب الأغلال على طرفى نقيض . لكن صاحب الأغلال لايكتب ابتغاء الحق ولكن ابتغاء التشنيع . ولا بأس عنده فى سبيل تحقيق غرضه من التلبيس والتحريف

والشواهد على عدم أمانة الرجل كثيرة فى كتابه نقتصر مما بقى منها على ثلاثة قصيرة ولكنها كبيرة الدلالة .

الأول قوله في باب التوكل أيضاً :

« وفي قواميس اللغة . توكل على الله واتكل استسلم » وإذا رجعت إلى القاموس وجدت « استسلم اليه » لا استسلم فحسب . وحذف « اليه » يوهم الاستسلام لغير الله، وذكرها يقيده بأنه إلى الله ويذهب بكل ما أراد صاحب الاغلال الاستشهاد به عليه، إذ لا حرج على المسلم ـ بل الفخر كل الفخر ـ أن يستسلم إلى الله اذ هذا من المعنى الأساسي للاسلام . هذا واحد .

الثاني أنه أراد أن يتهم أهل الحديث النبوي بالوضع على النبي ما لا يمكن أن يكون ﷺ قد قاله، فأورد فيما أورد حديث « أكثر أهل الجنة البُله » ونقل معناه عن قاموس النهاية لابن الأثير وأسقط ما نص عليه ابن الأثير في آخر شرحه إذ قال « فأما الأبله وهو الذي لا عقل له فغير مراد » . واستباح صاحب الأغلال هذا الاسقاط ليوهم قارئه أن المعنى على المتبادر من اللفظ .

لكن لعل من أظهر الدلائل على خيانة الرجل في البحث بيتاً استشهد به فغير فيه لفظة لو ذكرها على أصلها ما أسعفه البيت بما يريد من النعي به على قوم يزعم أنهم يعبدون قبور أناس بعد الموت وقد كانوا لا ينصفونهم في الحياة : قال « وقد قيل في هذا المعنى أو ما يشبهه :

لا ألفينك بعد الموت تعبدني وفي حياتي ما زودتني زاداً

والبيت « تندبني » كما هو معروف، لكن لا بأس فيما يظهر من مثل هذا التحريف والتلبيس بالحذف والتبديل في مذهب صاحبنا الجديد

والآن لا بد من وقفة عنـد هذه الظاهرة فى هذا الرجل الغريب .

لا نظن الرجل كان يستبيح مثل هذا الغش والكذب فى أيامه الأولى التى حدثنا هو عنها ـ أيام كان يحذر الآخرة ولا يبالى بالدنيا ، وأيام كان يرجو الله ويخشاه ولا يرجو ولا يخشى سواه . أما بعد أن صار سببياً محضاً ومادياً يرى المادة غاية الحياة ، فقد انقلب عن فضائله الأولى التى عاقته عن بلوغ حظ الناس من الدنيا ؛ وأخـذ يسلك إلى الدنيا سبلها غير متقيد بقيد عله يختصر الطريق إلى ما فاته منها ، فكان هذا الذى قصصنا عليك من خيانته فى النقـل وفى التفـكير . والغاية تبرر الواسطة عند من يتحلل من قيود الدين ، على ما فى الغاية عند هذا الرجل من سقوط .

* * *

وبعد فقد طالت هذه المقدمة فوق ما كنا نريد ، لـكن لا بد لنا مع ذلك من أن نتلمس وجه العبرة فى هذا المثل الفذ من أمثلة الانقلاب الدينى ـ مثـل هذا الرجل الذى كان بالأمس من المؤمنين الخُمس فأصبح يرى التدين لا يأتى بخير ، ويرى الدين لا فائدة فيه

أما فرق ما بينه اليوم وبين نفسه بالأمس من حيث السلوك فقـد رأيت طرفاً منه فيما قصصنا عليك . ولو قرأت كتابه لرأيت سُحق ما انقلب اليه : تقرأ له فتقول دهرى يتكلم ؛ ثم تقرأ فتقول صهيونى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول شيوعى يتكلم . ولعل فى هـــذا ما يفسر طلبه الدنيا عن طريق مناصبته الاسلام العداوة ، ومبالغته فى ذلك حتى ليخيل إليك أنك إزاء كلب أو ذئب عقور يحاول أن يعقر من الاسلام كل ما يرى لولا أنك ترى

أحيانا من خداعه وختله ، ودورانه ولفه ؛ ماينذرك أنك تجاه عدو يكيد ولكن كيد مفتون مغرور .

فلنترك الرجل وما اختار لنفسه ،ولنتساءل كيف أمكن أن يقع مثل هذا الانقلاب ؟ كيف أمكن أن يأتى الرجل مصر متديناً زاهداً متشدداً كما يقول ثم ينقلب فيها إلى ما انقلب اليه ؟ أى وسط وأية بيئة مصرية أثرت فى الرجل ذلك التأثير ، ونقلته تلك النقلة ؟

إن المشتغلين بالاصلاح فى مصر لا يستغنون عن كشف تلك البيئة والعوامل فيها ، فانها إذا كانت قد أثرت ذلك التأثير فى ذلك الزاهد الأحمس على حد وصفه لنفسه فى طوره الاول ، فأى تأثير يكون لها فى من يتعرض لها من شبابنا وليس لهم من الوقاية الدينية ما كان لذلك المسكين ؟

على انه سواء عرفنا تلك البيئة أو لم نعرفها فلا مناص لأولى الأمر القوامين على المسلمين فى مصر وفى غير مصر من أن ينظروا بجد فى هذا المشكل ، مشكل صيانة النشء الاسلامى ووقايته مما استجد فى البيئة الاسلامية من العوامل الهدامة للدين فى النفوس . والعبرة فى صاحب الاغلال من ناحيتين : ناحية تربيته الدينية الأولى فهذه ثبت أن مثلها لا يصون ولا يقى . فيجب أن نتجنب مثلها فى تربية نشئنا . والأخرى ناحية البحث عن تربية اسلامية صالحة تصون وتقى وتكفى على الأقل لرد عادية الشبهات الحديثة التى لابد أن تعرض للمسلم فى هذا العصر الحديث حتى إذا وجدوها — ووجودها ميسور — اتخذوها ونفذوها على الوجه الذى يكفل تحقيق الغرض منها فى بيئات التعليم والتربية على اختلافها .

ولا بد من اختلاف فى صور تلك التربية يناسب الاختلاف فى تلك البيئات . لكن الروح يجب أن تكون واحدة . روح القرآن وروح العلم الطبيعى : علم الفطرة التى دينها الإسلام .

وإلى أخوى فى الاسلام اللذين أتاحا لى فرصة التعبير عن هذه الآراء خالص تحيتى وشكرى ، ثم خالص دعائى أن يجزيهما الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

محمد احمد الغمراوى

شعبان سنة ١٣٦٧
يونية سنة ١٩٤٨

نأسف لوقوع بعض أخطاء فى هذه المقدمة ، فقد وقع فى صفحة (س) فى السطر الرابع كلمة (رجال) وصوابها (رجالا) وفى السطر العاشر منها كلمة (الرسول) وصوابها (الرسل).